الفصل الثالث

إيذاء الجسم حزنا على الميت

كانت العادة عند الاسرائيليين القدماء أن يظهروا حزنهم على وفاة أصدقائهم عن طريق قطع أجسامهم وقص جزء من شعورهم بحيث تبدو صلعات فوق رءوسهم • وقد ذكر النبى أرمياء متنبئا بالدمار الذى كان من المتوقع أن يحل بأرض الميعاد ، كيف أن الناس سوف يموتون دون أن يجدوا من يقومون بدفنهم أو يؤدون لهم شعائر الحزن المألوفة فقال : « فيموت الكبار والصغار فى هذه الأرض ، لا يدفنون ولا يندبونهم ولا يخمشون أنفسهم ولا يجعلون قرعة من أجلهم » • (ارمياء الاصحاح السادس عشر آية ٦) • ومرة أخرى نقرأ فى سفر ارمياء كيف « أن رجالا أتوا من شكيم ومن شيلو (سلوان) ومن ومن السامرة ،ثمانين رجلا محلوقى اللحى ومشققى الثياب وبيدهم تقدمة ولبان ليدخلوهما الى بيت الرب » (ارماء : الاصحاح الحادى والأربعون آية ٤ ــ ٦) • وذلك بعد أن حمل بختنصر اليهود معه الى الأسر • وقد اصطنع هؤلاء الحجاج الأتقياء كل مظاهر الحزن العميق أسفا على الكارثة الكبرى التى حلت بأرض الميعاد وبأورشليم • وقد ذكر الأنبياء السالفون من بين عادات الحزن المألوفة التى كان يسمح بها الدين ، بل يأمر بها ، عادة قص الشعور الى درجة احداث صلعة فى الرأس ،وان لم يذكروا عادة تجريح الأجسام • فالنبى « عاموس»، وهو أقدم نبى وصلتنا كتاباته ، يعلن على لسان الرب زوال دولة بنى اسرائيل ويقول : « وأحول أعيادكم نوحا وجميع أغانيكم مراثى وأصعد على كل الأحقاء مسحا ، وعلى كل رأس قرعة وأجعلها كمناحة الوحيد وآخرها يوما مرا » • (سفر عاموس ، الاصحاح الثامن آية ١٠) • ومرة أخرى تقرأ فى سفر أشعياء : « ودعا السيد رب الجنود فى ذلك

اليوم الى البكاء والنوح والقرعة والتنطق بالمسح » • وقد تنبأ النبى « مخـــا » بالكوارث التى تحل بالمستقبل بالمملكة الجنوبية . وطلب من الناس أن يستعدوا لاستقبال صحتهم فيحلقون رءوسهم كما يفعـل المحزونون فقال : « كونى قرعاء وجزى من أجل بنى تنعمك ، وسعى قرعتك كالنسر لأنهم قد انتفوا عنك » • وليس المقصود بالنسر هنـــا هو النسر العادى ، كما هو الثابت فى الرواية الانجليزية وانما يقصد به طائر القرنين (١) ؛ الذى لا يكسو الشعر رقبته ورأسه ، ويكسو ما دون ذلك ، وهذا المظهر لا يشاركه فيه النسر العادى • وقد ظل النبى « حزقيال » يكتب فى منفاه حتى بعد أن تحققت هذه النبوءات بغزو البابليين لأرض الميعاد ، وقال : « ويتنطقون بالمسح ويغشـــاهم رعب وعلى جميع الوجوه خزى وعلى جميع رءوسهم قرع » (ســـفر خزقيال) الاصحاح السابع ، آية ١٨) ••

ويبدو أن عادة تجريح الجسم وحلق جـــزء من الشعر علامة على الحزن ، كانت مألوفة لدى اليهـــود وجـــيرانهم وهم الفلســـطينيون والمؤآبيون • فالنبى أرمياء يقول : « أتى الصلع على غزة • أهلكت أشقلون (عسقلان) مع بقية وطائهم • حتى متى تخمشين نفسك » • (سفر ارمياء • الاصحاح السابع والاربعين آية ٥) • ثم يقول النبى نفسه وهو يتحدث عن دمار خموش وعلى الاحقاء مسوح • على كل سطح موآب وفى شوارعها كلها نوح لانى قد حطمت موآب كاناء لا مسرة به يقول الرب » (سفر أرمياء الاصحاح الثامن والأربعين آية ٣٧ وما بعدها) • وكتب النبى أشعياء عن الموضوع نفسه فقال : « تولول موآب على نبو وعلى ميديا فى كل رأس منها قرعة كل لحية مجزوزة • فى أزقتها يأتزرون بمسح • على سطوحها وفى ساحاتها يولول كل واحد منها سيالا بالبكاء » (سفر أشعياء ، الاصحاح الخامس عشر ، آية ٢ وما بعدها) ••

---

(١) هو النسر الخرافى (المترجمة) .

وعلى الرغم من أن الاسرائيليين ظلوا يمارسون عادات الحزن هذه زمنا طويلا دون ابداء الاستياء منا ، فإن هذه العادات أصبح ينظر اليها فيما بعد بوصفها عادات بربرية وثنية • ولهذا فقد حرمت فى الشرائع القانونية التى ألفت قرب نهاية الحكم الملكى اليهودى ، أى فى أثناء الأسر البابلى أو بعده • فنحن نقرأ فى أسفار موسى الخمسة التى ذاعت فى أورشليم عام ٦٢١ ق • م أى قبل الغزو ، الآيات التالية. « أنتم أولاد للرب الهكم • لا تخمشوا أجسامكم ولا تجعلوا قرعة بين أعينكم لأجل ميت ، لأنك شعب مقدس للرب الهك ، وقد اختارك الرب لكى تكون له شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » (سفر التثنية ، الاصحاح الرابع عشر الآية الأولى وما بعدها) • فهناك نجد أن تحريم هذه العادة يرتكز على مكانة دينية شاذة احتلها الاسرائيليون بوصفهم شعب يهوه • وقد نصحت هذه الأمة أن تكف عن التمسك بهذه العادات الغريبة وهى تلك العادات التى كانت قد انغمست فيها حتى ذلك الوقت دون أن ينسب اليها إثم فى ذلك . والتى كانت تنتشر بين الشعوب الوثنية المجاورة لهم حتى ذلك الوقت • ونستطيع أن نحكم ، ما وسعنا ذلك ، على أن هذا التغير قد نشأ نتيجة تطور فى الحس الوجدانى الذى حارب مثل هذه المظاهر الغريبة فى الحزن بوصفها أفعالا ينفر منها الذوق السليم والانسانية معا • ولكن المصلح غلف فكرته كما هو المألوف ، فى رداء دينى ، لا بدافع اعتبار سياسى متعمد ، ولكن لمجرد أنه لم يدرك ، اتفاقا مع أفكار عصره ، أية وسيلة أخرى يوافق الناس بناء عليها موافقة كلية على أى سلوك انسانى ، أكثر من الخوف من الرب •

وقد تكرر هذا التحريم نفسه فى التشريع اللاوى الذى ألف فى أثناء فترة السبى أو بعدها • فقد ورد فى هذا التشريع : « لا تقصروا رءوسكم مستديرا ولا تفسد عارضيك ، ولا تجرحوا أجسادكم لميت ، وكتابة وسم لا تجعلوا فيكم • أنا الرب » (سفر اللاويين الاصحاح التاسع عشر آية ٢٧) •

ولكن يبدو أن المشرع قد تبين أنه ليس من اليسير أن يستأصل بجرة قلم عادات قد تأصلت فى العقول الشعبية ، وطالما نظر اليها الشعب بوصفها عادات لا اثم وراءها ، لأنه ألح فيما بعد ، كما لو كان قد شعر باليأس من أن الناس جميعا سوف يهجرون تلك العادات المتبعة فى ابداء الحزن ، على أن الكهنة على الأقل سوف يتجنبون تلك العادة كلية • فقال : « وقال الرب لموسى كلم الكهنة بنى هرون وقل لهم : لا يتنجس أحد منكم لميت فى قومه الا لأقربائه الأقرب اليه أمه وأبيه وابنته وأخيه وأخته العذراء القريبة اليه التى لم تصر لرجل . لأجلها يتنجس • كزوج لا يتنجس بأهله لتدنيسه • لا يجعلوا قرعة فى رءوسهم ولا يحلقوا عوارض لحاهم ولا يجرحوا فى أجسادهم » • وقد أكدت الحوادث فيما بعد صحة الشكوك التى كانت تساور المشرع بالنسبة لكفاءة العلاج الذى شرعه للقضاء على هذه العادات الآثمة • فقد أخبرنا النبى أرمياء بعد ذلك بعدة قرون أن بعض اليهود كانوا وما زالوا يجرحون أذرعهم ويحدثون صلعات فى رءوسهم تعبيرا عن حزنهم على الميت •

وقد كانت تنتشر عادة حلق الرءوس وتجريح الجسم أو تشويهه • بوصفهما إمارتين عن الحزن ، انتشارا كبيرا بين الأجناس البشرية ، واتجه الآن الى توضيح هاتين العادتين والاستفسار عن مغزيهما • واننى اذ أفعل هذا ، أركز اهتمامى بصفة خاصة حول عادة تجريح الجسم أو ايذائه أو خدشه بوصفهما أكثر العادتين غموضا وأجدرهما بالملاحظة •

وقد كان العرب الجاهليون ، شأنهم شأن اليهود ، يصطنعون من بين الشعوب السامية هاتين العادتين • فالنساء العربيات كن يمزقن الجزء العلوى من أرديتهن ويخدشن وجوههن وصدورهن بأظافرهن ، ويضربن أنفسهن بالأحذية ويقصصن شعورهن • فعندما توفى القائد العظيم خالد بن الوليد لم تكن هناك سيدة واحدة من قبيلته بنى المغيرة

الا وقد قصت خصلات شعرها ووضعتها عند قبره • وما تزال تنتشر مثل هذه العادات بين عرب موآب حتى اليوم • فعند وفاة فرد من أفراد الأسرة تخدش النساء وجوههن الى درجة أن يراق دمها ويمزقن أرديتهن عند الوسط • واذا كان الشخص المتوفى هو الزوج أو الأب أو أى شخص آخر تدنو قرابته منهن ، فانهن يقصصن ضفائرهن وينتشرنها على قبره أو يلففنها على رأس الضريح ، أو انهن يثبتن وتدين فى الأرض ، أحدهما عند رأس الضريح والآخر عند مؤخرته ، ويربطن ما بين الوتدين بحبل يعلقن عليه خصلات شعورهن •

وبالمثل كانت النساء عند الاغريق القدماء يقصصن شعورهن ويخدشن وجناتهن اذا ما توفى أحد أقربائهن الأدنون أو أحد أقربائهن الأعزاء لديهن • وفى بعض الأحيان يخدشن رقابهن بأظافرهن حتى تدمى • وبالمثل كان الرجال يحلقون شعورهم علامة على الحزن واحتراما للميت • فهوميروس يخبرنا كيف ان المحاربين الاغريق غطوا جسد « باتروكلوس » فى طروادة بضفائر من شعورهم وكيف وضع « أخيل » فى يد صديقه المتوفى خصلة من الشعر كان أبوه « بيليوس » قد نذرها لنهر « سبيركوس » ليقدمها ابنه له اذا ما عاد سليما من الحرب • كما قيل ان « أورستوس » وضع خصلة من شعره على قبر أبيه القتيل « أغا ممنون » • ولكن تشريع « سولون » الانسانى الذى شرعه فى أثينا حرم تلك العادة البربرية ، عادة خدش الجسم وايذائه بوصفهما مظهرين من مظاهر الحزن ، كما فعل التشريع الانسانى فى أسفارموسى الخمسة الذى صدر فى أورشليم • وعلى الرغم من أنه يبدو أن عادة قص الشعر تكريما للميت لم يمنعها القانون صراحة ، الا أنها ربما انقرضت فى أثينا بتأثير التقدم الحضارى • فما يبدو لنا على الأقل ، هو أن كلتا العادتين المتبعتين للتعبير عن الحزن لفقد الأقرباء والأصدقاء ، قد وصلت الينا فى كتابات الشعراء الذين صورا حياة العصر البطولى وأخلاقه ، ذلك العصر الذى سبقهم بزمن طويل •

وكذلك كانت النساء الأشوريات والأرمينيات ينزعن الى خدش خدودهن تعبيرا عن الحزن ، كما نعلم ذلك من « كزينوفان » الذى ربما شاهد مظاهر الحزن عند هزيمة « العشرة آلاف » التى شارك فيها بوصفه جنديا ، وخلدها بوصفه كاتبا • ولم تكن هذه العادة مجهولة عند الرومانيين القدماء لأن أحد قوانين « الألواح العشرة » الذى يرتكز على تشريع « سولون » ، حرم على النساء خدش خدودهن بأظافرهن عند الحداد • وقد اعتقد العلامة الرومانى القديم « فارو » أن جوهر تلك العادة كان يتمثل فى تقديم قدر من الدم عند قبر الميت ، وهو الدم السائل من خدود النساء بوصفه بديلا ناقصا لدماء الأسرى وهؤلاء الذين ضحوا بأنفسهم حتى الموت • وتؤكد عادات الشعوب الهمجية التى تعيش فى العصر الحديث ، كما سنرى وشيكا ، الى حد ما ، هذا التفسير لتلك العادة • فقد صور لنا « فرجيل » « أنا » وهى تشوه وجهها بأظافرها وتضرب صدرها بقبضتيها عندما وصل اليها نبأ وفاة أختها « ديدو » وهى واقفة بجوار النار المعدة لحرق جثث الموتى • على أننا نشك فيما اذا كان الشاعر يشير فى وصفه هذا الى عادة قرطاجانية ، أو الى عادة رومانية قديمة كانت تتبع فى ابداء الحزن على الفقيد •

وقد كان « السكيثيانيون » يحلقون شعرهم بأكمله ، ويجرحون أذرعهم ويخدشون جباههم وأنوفهم ويبترون آذانهم ، ويغرزون سهاما فى أيديهم اليسرى ، عندما يتوفى ملك من ملوكهم • وقد كان من عادة « الهون » ، عندما يعلنون الحداد على موت فقيد ، أن يجرحوا وجوههم جرحا بالغا ، ويحلقون شعورهم •

وعلى هذا النحو أبدوا حزنهم على أتيلا ، « لا عن طريق عويل النساء وبكائهن فحسب ، ولكن عن طريق تقديم قدر من دماء الرجال كذلك » • ومنذ عصر بالغ فى القدم تركز الشعوب السلافية تعبيرها عن الحزن على الفقيد فى الصراخ والعويل ، بينما يجرح المحزونون

وجوههم ، وهى عادة لا تزال تنتشر بين بعض سكان دالاماتيا ومونت ديجرو » • واذا حدثت وفاة فى بيت من بيوت « المينجريلايين » فى القوقاز • فان المحزونين يخدشون وجوههم ويشدون شعورهم كما انهم يحلقون وجوههم بما فى ذلك حواجبهم وفقا لرواية من الروايات • ووفقا لرواية أخرى ان النساء هى اللاتى يقمن بابداء شعائر الحزن هذه ، فالأرملة تجتمع فى حجرة زوجها المتوفى مع قريباته ويسلمن أنفسهن لأعمال العنف أو بالأحرى يسلمن أنفسهن للتعبير عن الحزن ، فيشددن شعورهن ويلطمن وجوههن وصدورهن ، ويعترضن على حادث الوفاة المؤسف • أما الشعر الذى ينتزعه من رءوسهن فى هذه المناسبة ، فيضعنه فيما بعد فى لحد الميت • ويجتمع الاقرباء فى مثل هذه المناسبة عند قبيلة « أوسيتى » فى القوقاز فيعرى الرجال رءوسهم وأفخاذهم ويضربون أنفسهم بالسياط حتى يسيل منها الدم • أما النساء فيخدشن وجوههن ويعضضن أذرعهن ويشددن شعورهن ، ويضربون صدورهن ، وهن يصرخن صراخا معولا •

ويبدو أن عادة تجريح الجسم ، بعيدا عن عادة بتر مفاصل الأصابع ، تقل نسبيا بين القبائل الافريقية • ومن عادة الأحباش ، عندما يحزنون على وفاة قريب أن يقصوا الشعور وينثروا الرماد على رءوسهم ويخدشوا خدودهم حتى يسيل منها الدم • واذا حدثت وفاة عند قبيلة وانيكا التى تسكن فى شرق افريقيا ، فان الأصدقاء والأقرباء يجتمعون ويعولون بصوت عال ، ويحلقون رءوسهم ويخدشون وجوههم • وعند قبيلة كيسى التى تعيش عند حدود ليبيريا تغطى النساء أجسامهن عند الحزن على الميت ، كما يغطين رءوسهن بصفة خاصة بطبقة من الطين ، ويخدشن وجوههن وصدورهن بأظافرهن • وقد تعودت الأرمل عند بعض قبائل كافير التى تسكن فى جنوب افريقيا ، أن تبقى فى مكان منعزل مدة شهر بعد وفاة زوجها ، ثم تخلع ملابسها وتغسل جسمها ، وتجرح صدرها وذراعيها ورجليها بحجر حاد ، بعد انقضاء هذه الفترة ، وقبل أن تعود لبيتها •

واذا كانت عادة تجريح الجسم عند الحزن تمارس فى ندرة فى افريقيا ، فانها كانت مألوفة بين القبائل الهندية فى أمريكا الشمالية • فقد ألف أفراد قبيلة « تينيه » أو « دينى » التى كانت تسكن فى شمال غرب أمريكا أن يجرحوا أجسامهم عند وفاة قريب ، ويقصوا شعورهم ويمزقوا ملابسهم ويتمرغوا فى التراب • واذا حدثت وفاة عند قبيلة « كينسيتينوه » أو « كرى » التى كانت تنتشر فى مساحة واسعة فى غرب كندا ، فانهم يعبرون على هذا النحو عند أحزانهم • واذا كان الفقيد عزيزا عند اقرباءه الأدنين يقصون شعورهم ويخزون الرماح والسكاكين فى أفخاذهم وأذرعهم ويطلون وجوههم بالفحم • وعندما يحرق جسد الميت فى النار المضطرمة عند قبيلة « كيجانى » وهى فرع من هنود « تيلينكت » أو « تيلينجيت » فى الاسكا ، فان أقرباء المتوفى يجتمعون ويؤذون أنفسم بدون هوادة ، مزدرين أنفسهم كل الازدراء ، فيخدشون أجسامهم ويجرحون أذرعهم ويضربون وجوههم بالأحجار الى غير ذلك من الأفعال العنيفة • وهناك فرع آخر من هنود تيلينجيت يكتفى أفراده فى مثل هذه المناسبة الحزينة بحرق شعورهم أو تشييطها بأن يزجوا برءوسهم فى لهيب النار المضطرمة المعدة لحرق الجثث بينما يكتفى البعض الآخر الذين يتسمون بشىء من التعقل فى تصرفاتهم ، أو ربما لأن حزنهم على الفقيد لم يكن يصل الى درجة حزن الآخرين عليه ، بقص شعورهم وطلاء وجوههم برماد الجثة المحترقة •

وقد كان من عادة رجال ونساء هنود ولاية وشنطون الشجعان الذين يتميزون برءوسهم المفلطحة ، أن يعلنوا الحداد على المحارب المتوفى • بأن يقطعوا قطعة من لحمهم ويلقونها فى النار مع جذوع الأشجار • واذا ألمت كارثة بهنود هذه المنطقة كأن يتوفى زعيم مرموق أو تقتل جماعة من محاربيهم بيد قبيلة معادية ، فان الجميع يشتركون فى اظهار هذه العواطف المحمومة ، فينتزعون شعورهم ويجرحون أجسامهم بحجر القداحة وكثيرا ما يصيبون أنفسهم بأذى بالغ •

« وقد كانت من عادة أقرباء الميت فى قبيلة شينوك ، وغيرها من القبائل الهندية التى تسكن فى أوريجون أو عند نهر كولومبيا ، أن يدمروا ممتلكاتهم ، ويقصوا شعورهم ، ويشوهوا أجسامهم ويجرحوها » • وقد يتراءى للرائى ؛ عندما ينظر الى هذه القبائل الهمجية ، والدماء تسيل من أجسادهم ، أنهم لن يبرءوا من مثل هذه الأعمال المتوحشة التى يصنعونها بأنفسهم ، ولكن مثل هذه الجروح ، وان تكن سيئة ، ليست خطيرة • ولكى يجرح الرجل الهمجى نفسه ، فانه يمسك بجزء من جلده بين الابهام والسبابة حتى يبرز هذا الجزء ، ثم يأتى بسكين ويزجه فى وسط ، فيترك هذا القطع ، بعد أن يعود الجلد الى وضعه الطبيعى ، جرحا بالغا قبيح المنظر أشبه بالحجر • ومن هذا الجرح يتدفق الدم بغزارة • وبهذا يشوه أقرباء المتوفى أنفسهم بمثل هذه الجروح ، وربما بما هو أسوأ منها •

« واذا حدثت وفاة بين هنود شبه جزيره كاليفورنيا ، فان من يود أن يبدى لأقرباء الميت حبه له ، فانه ينتظر قدوم أقرباء الميت ، فاذا مروا به فانه يخرج من مخبأه زاحفا على وجه التقريب ، ويتغنى بصوت شاك حزين قائلا : « هو ، هو ، هو ، » ثم يضرب رأسه بأحجار حادة مدببة ، حتى يسيل الدم على كتفيه • وعلى الرغم من أن هذه العادة البربرية كثيرا ما كانت تحرم ؛ الا أن الناس لا يبدون استعدادا للكف عنها » • وبمجرد أن تصعد روح الميت » عند الهنود « الجالينوميريين » ؛ وهم فرع من الهنود البومبيين الذين يسكنون وادى نهر روسيا فى كاليفورنيا ، « فانهم يلقون بالجثة فى وقار بين النار المضطرمة المعدة لحرقها • وليس من اليسير وصف تلك المناظر البشعة التى يقومون بها من صراخ وعويل مفزع ، الى اصابة الجسم بجراح بالغة فى أثناء احتراق الجثة • ويقول « جوزيف فيتش » انه قد رأى هنديا أصابه الهياج الى درجة أنه دفع بنفسه بين النار المتوهجة؛ وانتزع قطعة من جسد الميت المحترق والتهمها » • ويقص أقارب المتوفى الأدنون فى بعض قبائل هنود كاليفورنيا شعورهم ، ويرمونها

فى النـــار المضطرمة ، فى الوقت الذى يأخـــذون فى ضرب أجســـامهم بالأحجار حتى تدمى •

ولكى يبدى هنود « سنيك » الذين يسكنون جبال روكى حزنهم على الفقيد القريب أو على الفقيد الصديق ، فانهم يحدثون جراحا فى الأجزاء التى يتراكم فيها اللحم فى أجسادهم • وكلما ازداد حبهـــم للفقيد ، عمقوا الجرح فى أجسادهم • وقد أكد هؤلاء لمبشر فرنسى أن الألم الذى يملأ نفوسهم لفقد الميت يتسرب الى الخـــارج من هـــذه الجروح • وقد أخبرنا هذا المبشر نفسه أنه تقابل مع مجموعة من نساء « كرو » المكلومات ، وقد غطت الدماء المتجلطة أجسامهن فى صـــورة بشعة الى درجة أن منظرهن كان يبعث على الشفقة بقدر ما كان يثير الفزع • وقد كان هؤلاء النسوة المساكين ملتزمات بتجـــديد شـــعائر الحزن فى كل مرة يمررن فيها بجانب قبور أقربائهن • وقد كان مـــن المحرم عليهن أن يغسلن أجسامهن طالمـــا كانت هناك بقعة متجلطة من الدم فوقها • ومن عادة قبيلة « كومانثى » ، وهى قبيلة هندية تشتهر باقتنائها الخيول فى تكساس ، أن أفراس الرجل الميت تقتل فى العادة وتدفن معه حتى يتمكن المتوفى من أن يركبها فى « بلاد الصيد السعيدة» • كما يحرق أفضل متاعه لكى يكون معدا للاستعمال عند وصوله الى العالم الأفضل • وعند ذاك تجتمع زوجاته الارامل حول أفراسه ، وقد حملت كل منهن سكينا فى يد وحجـــر الشحذ فى اليد الأخرى ثم يعـــولن بصوت عال بعبارات حزينة بينما يجرحن أذرعهن وأرجلهن وأجسامهن، حتى ينتابهن التعب نتيجة تدفق الدم • كما يقص أفراد هذه القبيلة شعر أعناق الأفراس وذيولها تعبيرا عن الحزن فى هذه المناسبات ، كما يقصون شعورهم أنفسهم ويجرحون أجسامهم بطرق شتى • وعنـــد هنود « أراباهو » تجرح النساء الحزينات الجزء الأعلى والأســـفل من أذرعهن وكذلك أسفل ركباتهن جرحا سطحيا • ويحل المحزونون فى هذه القبيلة جدائلهم ، وفى بعض الأحيان يقصونها • وكلما ازداد حبهم للفقيد الراحل ازداد قطعهم لشعرهم • ثم تـــدفن خصـــل الشـــعر

المقصوص مع جسد الميت • وفضلا عن هذا فانه يقص شعر ذيل الحصان الذى قتل ليرافق الميت فى حياته الآخره ، وكذلك شعر عنقه ، وينثر الشعر على ضريح الميت • وعند وفاة الأب أو الأم أو الابن عند السوكيين والفوكسيين • وهما يكونان قبيلة هندية أخرى ، فان أقارب المتوفى ، « يجرحون أذرعهم وأرجلهم وأجزاء أخرى من أجسادهم • وهم لا يفعلون ذلك بقصد تعذيب الذات ، ولا بقصد اثارة الألم فى نفوسهم الأمر الذى يصرفهم عن تذكر خسارتهم ، وانما يفعلون ذلك بدافع الاعتقاد فى أن حزنهم الداخلى لابد أن يجد منفذا يتسرب منه • وليست هناك وسيلة أخرى للتخلص من هذا الحزن خلاف هذه الوسيلة » • وبالمثل يجرح أفراد قبيلة « داكوناس » أو سيوكس أذرعهم وأفخاذهم وأرجلهم وصدورهم وغير ذلك ، على هذا النحو عند موت صديق • ويعتقد الكاتب (١) الذى دون هذه العادة أنه من المحتمل ان هذه القبيلة تفعل هذا بقصد التخفيف عن آلامهم النفسية ، لأن هؤلاء الهنود أنفسهم كثيرا ما تعودوا أن يجرحوا أنفسهم وأن يمتصوا دماءهم ، وذلك لشفاء أنفسهم من ألم جسدى • وفى اثناء هذه العملية يغنون او هم بالأحرى يرتلون التعاويذ التى يعتقدون انها بدون شك تعينهم على الشفاء • وقد تعودت الأرملة فى قبيلة « كانساس » أو « كونساس » التى تسمى الولاية باسمها ، وهى فرع ينتمى الى أصل « سيووان » ، أن تخدش نفسها وان تطلو جسدها بالطين ، كما أنها تهمل لبسها وتظل على هذه الحالة الجنونية مدة عام • ثم يأخذها أكبر اخوة الزوج المتوفى لتكون زوجة له دون أن يقوم بأى نوع من الاحتفالات •

وهذه العادة التى تختص بحداد النساء الأرامل تنتشر على

---

(١) هو الكاتب William H. Keating وذلك فى كتابه Narrative of an expedition to the source of St. Peter's River.

(نقلا عن النسخة الأصلية لهذا الكتاب ، جـ٣ ص ٢٨١).
(المترجمة)

نحو مشابه بين فروع أوماها فى نيبراسكا ، وهى فرع آخر ينتمى الى أصل « سيووان » • « فعند وفاة الزوج تبدى الزوجات من الهنود الحمر حزنهن المخلص على وفاة الزوج ، بأن يوزعن على الجيران كل شىء يمتلكنه ، ولا يحتفظن الا ببعض الملابس القليلة التى تكفى لتغطية أجسامهن لدرجة الاحتشام • ثم يخرجن من القرية ويجرحن أجسامهن ويأخذن فى العويل لفقد الميت دون انقطاع • فاذا كان للفقيد أخ ، فانه يتخذ أرملة أخيه بعد قضاء فترة مناسبة على وفاة زوجها ، زوجة له ، دون أن يقوم بأى استعداد رسمى لذلك » • أما عند قبيلة « أوماها » فلا يقتصر هذا الحداد الصارم على النساء الأرامل ، « فأقارب الميت يطلون أنفسهم بالجص ، ويجرحون أنفسهم بالحجر القداح ويقطعون أجزاء من جلدهم ولحمهم ، ويخزون أجسامهم بالسهام • فاذا مشوا فانهم يمشون حفاة الأقدام على بعد من قومهم لاظهار حزنهم على الشخص المتوفى » • « فاذا توفى رجل له مكانة بين قومه ، فانهم يعلنون الحداد على النحو التالى : « يتقابل الشباب الذين فى مقتبل العمر عند مكان يقع بالقرب من مسكن المتوفى ويخلعون عنهم ملابسهم فيما عدا المئزر • ثم يجرح كل منهم أعلى ذراعه جرحين ، ويزجون فى اللحم فرعا ذا عسلوج فى طرفه • ثم يتحركون فى صف واحد والدم يقطر من العسلوج المعلق فى أذرعهم ، حتى يصلوا الى مسكن الفقيد • وهناك يقفون فى مواجهة مسكنه فى صف بحيث تتلاصق أكتافهم ويغنون فى انسجام الأغنية الجنائزية على ايقاع فروع الصفصاف المتحركة ، وهى الأغنية الجنائزية الوحيدة التى تعرفها هذه القبيلة • وعند نهاية الأغنية يتقدم قريب من أقرباء الميت نحو المغنين ويرفع يده علامة على الشكر ، وينتزع فروع الصفصاف من أذرعهم ويرميها على الأرض » • وخلاف هذا ، فقد ألف أفراد هذه القبيلة ، ابداء لحزنهم على وفاة قريب أو صديق ، أن يقصوا خصلات شعورهم ويرموها على جسد الميت • وكذلك تقص

نساء هنود فرجينيا ضفائرهن فى بعض الأحيان ويرمينها على قبر الميت .

واذا حدثت وفاة بين هنود « وتاجونيا » ، يقوم المحزونون بتقديم واجب العزاء للزوجة الأرملة أو لأى قريب من أقرباء الرجل المتوفى ، وهم يصرخون ويعولون ويغنون بطريقة أشد ما تكون كآبة ، ويعتصرون دموعهم ، ويخزون أذرعهم وأفخاذهم بأشواك حادة حتى تدمى . وفى مقابل ابداء هذه العواطف الحزينة يمنحون بعض الخرزات أو بعض الحلى الرخيص . وبمجرد أن يعلم الشخص من قبائل « فويجيان » بموت صديق أو قريب له ، فانه ينفجر فى ابداء العواطف الحزينة ، فيبكى ويئن،كما أنه يجرح وجهه بقوقعة ذات طرف حاد، ويقص شعره حتى يبدوا قصيرا . أما عند قبيلة أونا الفويجيانية ، فان عادة جرح الوجه ابداء للحزن على الفقيد تقتصر على النساء الأرامل أو قريبات المتوفى .

وقد كان من عادة الاتراك القدماء أن يقطعوا وجوههم بالسكين حزنا على فقيدهم حتى يسيل الدم والدموع معا على وجناتهم . ومن عادة قبيلة « أورانج ساكاى » ، وهى قبيلة وثنية بدائية تعيش على الزراعة والصيد فى غابات شرق سومطرة التى يصعب على المسافر توغلها ، أن يقطع أفرادها وجوههم بالسكين حزنا على الميت قبل دفنه ، حتى يدعوا الدم يسيل على وجهه . واذا حدثت وفاة بين القبائل التى تتحدث لغة « رورو » التى تسكن عند منبع نهر سنت جوزيف فى نيوغينيا البريطانية ، فان النساء الغريبات من المتوفى يضربن رءوسهن ووجوههن وصدورهن وبطونهن وأذرعهن وأرجلهن بقواقع حادة حتى يتساقط الدم منهن ويقعن منهكات على الأرض . وعند قبيلتى « كويارى ، وتورايبى» اللتين تسكنان فى نيوغينيا ، يجرح المحزونون أجسامهم بالقواقع أو الحجر القداح حتى يتدفق الدم منهم بغزارة . وتعد فترة الحزن فى جزيرة « فايتى » أو « افاتى » وهى احدى جزر الهيبريد مناسبة للعويل الشديد . كما أن المحزونين يخدشون وجوههم حتى يتدفق منها الدم .

ويحدث مثل هذا فى جزيرة « ماليكولا » ، وهى جزيرة أخرى من جزر الهبريد الجديدة • فالمحزونون كانوا وما زالوا يقطعون أجسادهم حزنا على الفقيـــد •

ويقدم الجاليلاريزيون سكان هالماهيرا ، وهى جزيرة تقع فى غرب نيوغينيا شعورهم لروح قريبهم المتوفى فى اليوم الثالث لوفاته . وهو اليوم التالى ليوم الدفن • وتقوم امرأة لم ترزأ منذ زمن قريب فى موت أبيها أو أمها او ابنها بتأدية واجبات المحزونين ، فتنتزع شـــعر أطراف حواجبهم وخصلات شعورهم ، وتعلق هذا الشعر على معابدهم• وبعد أن يقص شعر المحزونين على هذا النحو ، فانهم يذهبون الى البحر ليستحموا ويغسلوا شعورهم بجوز الهند المبشور حتى يتطهروا من لوث الميت ، لأنهم يعتقدون أن لمس جسد الميت أو الاقتراب منه يجعل الشخص نجسا ، ومن يتعرض لمثل هذا الدنس أو يأكل طعاما كان فى البيت مع وجود جثة الميت ، فانه ، وفقا لتصورهم ، يفقد القدرة على رؤية الأرواح • واذا لم يقدم الأحياء شعورهم للميت ، ولم يقوموا بتطهير أنفسهم بعد ذلك فانه لا يتخلص وفقا لاعتقادهم كذلك ، من تعقب روح الأخ الميت أو روح الأخت الميتة لهم • فاذا توفى شخص بعيدا عن بيته ، على سبيل المثال ، ولم يكن نبأ موته قد وصل الى أسرته ، ولم يكن أفراد الأسرة ، بناء على ذلك ، قد قصوا شعورهم أو استحموا فى اليوم الثالث لوفاته ، فان شبح الميت (الذى يطلقون عليه اســـم صوصو) يسكنهم ويمنعهم من القيام بأعمالهم • فاذا عصروا جـــوز الهنـــد بعد ذلك ، فانهم لا يستجلبون منه الزيت . واذا سحقـــوا لب النخل ، لا يحصلون على وجبة تسد رمقهم ، واذا قاموا بالصيد فانهم لا يوفقون فى اصطياد أى حيوان • ويظل الشبح يضايقهم ويعطـــل أعمالهم حتى يصلهم نبأ الموت • وعنـــد ذاك يقصـــون شـــعورهم ويستحمون • ويعتقد المبشر الكفء الذى روى لنا هـــذه المعلومات أن تقديم الشعر للميت يخدع الشبح الساذج فيجعله يتصور أن أصدقاءه قد تبعوه فى العالم الآخر • ولكننا نشـــك فيما اذا كانت درجة سذاجة

الأشباح قد تمتد بحيث انهم يأخذون خطأ خصـــلات الشعر عـــلى أنها هى نفسها الأشخاص الذين قصت هذه الخصلات من شعورهم •

ويبـــدو أن هـــذه العادات كانت تنتشر بين كل فروع الجنس البولونيزى الذى ينتشر انتشارا كبيرا فى الباسفيك • فمن المألوف عند حدوث وفاة فى أوتاهيتى أن يحمل رفات الميت الى بيت أو كوخ بنى لهذا الغرض ويطلق عليه اسم « توبابو » • وهناك يترك حتى يتعفن ويتحلل اللحم تماما وتتخلف العظام • « وتبدأ شعائر الحداد بمجرد أن توضع الجثة فى الـ « توبابو » ، فتجتمع النساء عند باب أقرب قريبة للميت التى تكون بصدد ضرب هامتها مرات عديدة بسن سمك القرش حتى يتدفق منها الدم ويستقبل بحرص على قطع من القماش الكتان التى تطرح بعد ذلك فى نعش الفقيد ، ثم تفعل سائر النسوة بعد ذلك فعل هذه المرأة • ويتكرر حدوث هذا مدة يومين أو ثلاثة طالما كن متحمسات لهذا الفعل. وما زلن يبدين الأسف على فراق الميت • كما تستقبل الدموع التى تسكب فى هذه المناسبة على قطع من القماش وتقدم منحة للميت • ويقطع بعض الأفراد الأصغر سنا شعورهم ويرمونها أسفل النعش مع عطايا أخرى • وترتكز هذه العادة على فكرة أن روح الميت الذى يعتقـــد أنه يعيش منفصلا عن الميت ، يحلق فى المكان الذى يستلقى فيه الجســـد ويرقب أفعال الاحياء • وهو يمتن كل الامتنان بما يبدونه من مشاعر الحب والحزن » ووفقا لرواية كاتب آخر أن « التاهيتيين فى حالة الحزن، لا يعولون بصراخ عال ونغمة مؤثرة فحســـب ، وانما يحلقون شعورهم ويمزقون ملابسهم ويقطعون أجسامهم بأسنان سمك القرش أو بالسكين بطريقة مفزعة • والآلة التى تستخدم عادة فى هذا الايذاء ، هى قصبة صغيرة يبلغ طولها حوالى أربع بوصات ومثبت فى جانبيها ست أسنان من أسنان سمك القرش • وتحتفظ كل امرأة بهـــذه القصـــبة بعـــد زواجها لكى تستخدمها فى مناسبات الموت بلا رحمة • على أن البعض لا يكتفون بايذاء أنفسهم بهذه القصبة ، وانما يعدون آلة قصيرة أشبه بمطرقة الحداد ويبلغ طولها خمس أو ست بوصات • وهى مستديرة

عند طرف مقبضها ، ومثبت فى طرفها الخشبى الآخر صفان أو ثلاثة من أسنان سمك القرش • وبهذه الآلة يقطعون أجسامهم دون هوادة عند موت قريب أو صديق ، كما يضربون رءوسهم وخدودهم وصدورهم حتى يتدفق الدم بغزارة من الجروح ، وفى الوقت نفسه يصرخون صراخا يصيب الانسان بالصمم ويبعث فى النفس الألم • كما أن ملامحهم المشوهة وشعرهم الأشعث الممزق ، ودموعهم ودماءهم المختلطة التى تغطى أجسامهم ، ونظراتهم الهائجة ، وسلوكهم الجامح ، كل هذا يخلع عليهم مظهرا لا انسانيا مفزعا • وتقوم النساء أساسا بهذه الأعمال العنيفة ، ولكنهن لا يقمن بها وحدهن ، وانما يشاركهن الرجال فى هذه المناسبات ، هذه الأفعال الشائنة • فهم لا يقطعون أجسامهم فحسب وانما يأتون مسلحين بالهروات وغير ذلك من الأسلحة المميتة التى يستخدمونها فى ايذاء أنفسهم • وترتدى النساء فى بعض الأحيان فى هذه المناسبات الكئيبة مئزرا يمسكن طرفه باحدى أيديهن لكى يستقبلن فيه الدم ، بينما يجرحن أنفسهن باليد الأخرى • ثم يجفف هذا المئزر بعد ذلك فى الشمس ويقدم لأسرة المتوفى رمزا للود ، وهى تحتفظ به بدورها بوصفه دليلا على التقدير الذى كان يتمتع فيه الفقيد • وعند موت ملك أو زعيم كبير يجتمع مواطنوه ويمزقون شعورهم ويجرحون أجسامهم حتى تتغطى بالدم المتدفق ، وكثيرا ما يتشاجرون بالهراوات والأحجار حتى يقتل منهم واحد أو أكثر • وربما ساعدتنا هذه المشاجرات التى كانت تحدث عند موت زعيم كبير فى تفهم نشأة عادة مقاتلة الأسير حتى الموت التى نشأت فى روما • فالقدماء أنفسهم أخبرونا أن هذه المشاجرات جرت لأول مرة فى الجنائز ، وكانت بديلا لقتل الأسرى عند قبر الزعيم المتوفى • وقد أقام « بونيوس بروتس » أول عرض من هذا النوع فى روما عام ٢٦٤ ق•م• تكريما لوالده المتوفى ••

ولم يكن يقتصر استخدام نساء تاهيتى لأسنان سمك القرش بوصفه مبضعا لاسالة الدم من رءوسهم على مناسبات الموت ، بل كانت المرأة تستخدم هذا السلاح كذلك اذا حدث حادث لزوجها أو

لقريب من أقربائه أو صديق من أصدقائه أو لطفل من أطفالها • بل انها تستخدمه اذا وقع طفلها على الأرض ولحق به الأذى وعند ذاك تخلط دمها بدموعه • أما اذا توفى الطفل فان البيت يعج عند ذاك بالأقارب الذى يجرحون أجسامهم ويعولون بصوت مرتفع • « وفى هذه المناسبة يقطع الولدان شعرهما من جانب واحد بحيث يبدو قصيرا من جانب وطويلا من الجانب الآخر ؛ هذا بالاضافة الى سائر شعائر الحزن الأخرى • وأحيانا يقص الوالدان شعرهما فى مساحة مربع فى مقدمة الرأس ، وقد يترك البعض الآخر هذا الجزء ويقصون ما دون ذلك • وفى بعض الأحيان تترك خصلة من الشعر فوق كل أذن ، وأحيانا تترك خصلة فوق أذن واحدة ، كما أنه فى بعض الأحيان يقص نصف الشعر على نحو قصير للغاية ويترك النصف الآخر لينمو • وقد تمتد شعائر الحزن هذه مدة عامين أو ثلاثة أعوام » • وربما فسر هذا عادة الاسرائيليين فى احداث صلعات فى رءوسهم علامة على الحزن •

واذا توفى ملك أو زعيم كبير فى هواى أو جزر السندوتش ، فان الناس يعبرون عن أحزانهم بأشكال شتى من الاعتداء على أنفسهم ، فهم لا يمزقون ملابسهم كلية فحسب ، وانما يضربون أعينهم وأسنانهم بالسوط والحجر ، وينتزعون شعورهم ، ويحرقون جسدهم ويقطعونه • وأكثر عمليات التشويه التى تمارس فى هذه المناسبات انتشارا ، هى عملية اقتلاع الأسنان عن طريق ضربها • وكل من الجنسين يتبع هذه العادة ، وان كان الرجال يقومون بها على نطاق واسع • وعند وفاة ملك أو زعيم بارز ، فانه يتوقع من الزعماء الآخرين والذين تربطهم به رابطة الدم أو الصداقة ، أن يعبروا عن علاقتهم به بكسر سن من أسنانهم الأمامية عن طريق ضربها بالحجر • فاذا فعلوا هذا ؛ فان اتباعهم يشعرون بالتزامهم باقتفاء أثرهم • وفى بعض الأحيان يكسر الرجل سنه بنفسه • ولكن الغالب أن يقوم بتأدية هذا له شخص آخر ؛ فيأتى هذا بعصاة ويغرسها بجانب السن ويدقها بالمطرقة حتى يقتلع

السن أو تكسر • فاذا تردد الرجال فى فعل هذا ، فان النساء يقمن بهذا العمل لهم فى أثناء نومهم • ومن النادر أن يقتلع أكثر من سن فى مناسبة واحدة • ولكن لما كانت عملية الايذاء هذه تتكرر عند وفاة زعيم أو كبير فمن النادر رؤية رجال بالغين وقد اكتملت أسنانهم • بل ان كثيرا منهم فقد أسنانه الأمامية فى كلا الفكين ، الأمر الذى ينجم عنه عيب فى النطق ، بالاضافة الى الاضرار الأخرى • على أن هناك من يجرؤ على أن يشذ عن هذه القاعدة ويحتفظ بأسنانه كاملة •

وبالمثل فان أفراد قبيلة تونجان يقتلعون أسنانهم فى فترات الحزن كما يحرقون أجسامهم ويحدثون فيها قرحا ، كما يغرزون أسنان سمك القرش فى رءوسهم حتى يتدفق منها الدم ، ويزجون السهام فى أفخاذهم وفى الطرف الأسفل من ابطهم وفى خدودهم حتى تدخل فى أفواههم • ولقد أبصر بحار انجليزى توفى فى مطلع القرن التاسع عشر فى أثناء اقامته بين قبيلة تونجون ما قام به الناس من أعمال غريبة حزنا على ملكهم « فينو » ، وقد صور ذلك فى وضوح بالغ • فقد أخبرنا أن الزعماء والنبلاء الذين اجتمعوا فى هذه المناسبة أبدوا حزنهم على فقد ملكهم بأن أخذوا يقطعون أجسامهم ويضربونها بالسياط والأحجار ، ويقطعونها بالسكاكين والقواطع الحادة • وقد يجرى أحدهم أو اثنان منهم أو ثلاثة دفعة واحدة ، ثم يقفون وسط دائرة المتفرجين ليبرهنوا على حزنهم البالغ وتقديسهم لذكرى سيدهم وصديقهم الراحل • فيصرخ أحدهم قائلا : « فينو ! اننى أعرف تماما ما يدور بخلدك . لقد شئمت أن تتركنا وترحل الى بولوتو (أرض الأموات) • وبهذا تركت شعبك فى شك من أمره • فاذا كنت تشك فى اخلاصى أو اخلاص غيرى لك فما الدليل على عدم الاخلاص ؟ وهل هناك سلوك واحد من قبلنا يدل على عدم احترامنا لك » ؟ وبعد أن يقول هذا يضرب رأسه بقسوة ويجرحها جرحا عميقا بالسوط أو الحجر أو السكين وهو يصرخ بين الحين والآخر : « أليس هذا دليلا على اخلاصنا لك ؟ ألا يؤكد هذا ولاءنا واحتفاظنا بذكرى محاربنا الراحل ؟ » ثم يأتى شخص آخر

ويسير مستعرضا نفسه جيئة وذهابا فى خطوات هائجة جامحة ثم يدير سوطه فى سرعة ويضرب نفسه به مرتين أو ثلاث مرات بقسوة على أم رأسه أو خلف رأسه ، ثم يقف فجأة ويحملق فى الدم المتدفق ويصرخ قائلا : « واحسرتاه ياسوطى • من ذا الذى كان يتصور أنك تفعل هذا الفعل الحسن بى ، وتمكننى من أن أبدى احترامى للملكى فينو • أبدا ، أبدا ، لن تستطيع بعد ذلك أن تهوى على رءوس أعدائه • واحسرتاه على المحارب الشجاع العظيم الذى سقط ميتا • أيها الملك ، لتكف عن أن تشك فى ولائى لك ، ولتتأكد من اخلاصى لك » • وهناك من يرتكب أعمالا أعنف من هذا بأن يضرب رأسه ضربات شديدة متتالية حتى يصاب بالدوار ويفقد صوابه لبعض الوقت • كما يقوم البعض الآخر فى أثناء فترة الحزن على « فنو » بحلق رءوسهم ، واحراق وجناتهم بقطع من القماش المضفر المحترق ، ودعك جراحهم بثمار قابضة مسيلة للدم • ثم يضعون هذا الدم فى شكل حلقات حول الجرح الذى يبلغ قطره بوصتين فيكون منظرهم بذلك منفرا للغاية • وهم يكررون عملية الدعك هذه يوميا ، بحيث يسيل منها الدم من جديد • أما الصيادون فيضربون رءوسهم ويكدمونها بمجاديفهم دليلا على حبهم لسيدهم الراحل • وفضلا عن هذا فان كلا منهم يرشق ثلاثة سهام فى كل خد فى اتجاه مائل ، بحيث تدخل أطرافها داخل الفم وتتعلق رءوسها فوق الكتف ، بينما يسندها سهم آخر يثبت فى ظهر الصياد ويمسك برءوس المجموعتين بحيث يكون شكلا مثلثا • وبهذا العتاد الغريب يسير الصيادون حول قبر المتوفى وهم يضربون وجوههم ورءوسهم بالمجاديف ، أو يلدغون جلد صدورهم ويرشقون بداخلها السهام ، وكل هذا من أجل ابداء عواطفهم للزعيم الراحل •

وكذلك كانت من عادة المحزونين فى جزر « ساموان » ، أن يظهروا حزنهم عن طريق العويل المحموم والصراخ وعن طريق تمزيق الملابس وتقطيع الشعر واحراق الجسم بشعلات من النار ، واصابته

بكدمات بضربه بالاحجار ، وجرحه بالاحجار الحادة والقواقع ، وأسنان سمك القرش حتى يغطى الدم أجسام المحزونين • وهذه التعبير لا يعنى ، وفقا لرأى الدكتور « جورج براون » ، تقديم الدم للآلهة ، بل يعنى أولا وقبل كل شيء ، ابداء العواطف نحو الفقيد والحزن على فراقه • ومثل هذا يحدث فى « مانجيا » احدى جزر هيرفاى • فما يكاد الشخص المريض يلفظ أنفاسه ، حتى يصبغ أقرباؤه الأدنون وجوههم بالسواد ، ويقصون شعورهم ويضربون أجسامهم بأسنان سمك القرش حتى يتدفق الدم منها • وقد كان من المألوف فى « رارتونجا» أن تكسر بعض الأسنان الأمامية ابداء للحزن على الميت • وعلى هذا النحو يعلن المحزونون أسفهم على الفقيد فى جزر ماركويزا • « فعندما يموت زعيم كبير ، تطلق أرملته ونساء القبيلة صرخات مدوية ، بينما يضربن جباههن وخدودهن وصدورهن بشظايا البامبو • وقد اختفت تلك العادة على الاقل فى « توكاهيفا » • أما فى مجموعة الجزر الجنوبية الشرقية ، فلا تزال النساء يتبعن تلك العادة ، فهن يدمين وجوههن بعد جرحها بجراح بالغة ، ويظهرن علامات الأسى فى جنازة القريب » •

وقد كانت عادة الحزن بين الموءوريين فى نيوزيلندة شبيهة بهذا • « فزوجات الميت وأقرباؤه ، وبخاصة النساء يبدون حزنهم عن طريق قطع وجوههم وجباههم بالقواقع وقطع الزجاج البركانى الاسود ، حتى يتدفق الدم بغزارة ، ثم يتركونه يجف على وجوههم • وكلما تغطت الوجوه بجلطات الدم بدا حزنهم أكبر على الفقيد • كما كان الشعر يقص دائما علامة على الحزن • وكان الرجال يقصون شعورهم من جانب واحد من الجبهة الى الرقبة » • ووفقا لرواية أخرى ان قطع الجسم من أجل الفقيد بين الماوءوريين لم تكن تقتصر بحال من الاحوال على الوجوه والجباه • « فكل أقرباء الميت وأصدقاؤه وعبيده وخدمه وأتباعه ، اذا كان يملك بعضا منهم ، يقطعون أجسامهم فى ايجاع ، بحيث يكون مرآهم مفزعا للرجل الاوربى • فهم يمسكون

بقطعة من حجر القداح (وتقدس هذه القطعة لسفكها الدم وبسبب الغرض استخدمت من أجله) بين الابهام والوسطى ويدخلونها فى جلدهم على مسافة تبلغ قدر طول الظفر • ثم يجرحون جبهتهم • ويمتد الجرح فى شكل هلالى الى أسفل الوجه على كل من الجانبين ، كما تخدش الأرجل والأذرع والصدر بطريقة مؤلمة • وفى بعض الاحيان يجرح النساء صدورهن جرحا بالغا على نحو أشمل وأعمق مما يفعله الرجال •

وربما ليس هناك شعب تتبع فيه عادة تجريح الاجسام تكريما للميت ، اتباعا منظما وبقسوة بالغة كما يفعل سكان استراليا الأصليون السذج الذين ما زالوا يقفون عند أسفل المراتب الاجتماعية • فالارمل فى القبائل التى تسكن غرب فيكتوريا يعلن الحداد على زوجته مدة ثلاثة أشهر قمرية • وفى اليوم الثانى من كل شهر من هذه الشهور يصرخ ويعدد مآثر زوجته ويخدش جبهته الى أن يسيل الدم على خديه • كما أنه يغطى رأسه وجبهته بالجص ، فاذا كان يحبها حبا بالغا ويود أن يعبر عن بالغ حزنه لفقدها ، فانه يحرق نفسه حول خصره فى شكل ثلاثة خطوط بلحاء شجر متوهج • أما الارملة فهى تعلن الحداد على زوجها مدة سنة قمرية ، فتقص شعرها باتقان ، وتحرق فخذيها بالرماد المتوهج الذى تضغطه عليهما بقطعة من اللحاء حتى تصرخ من الألم • وفى الليلة الثانية من كل شهر تبكيه بعويل وتعدد مناقبه وتجرح جبهتها حتى يتدفق الدم على وجنتيها • وفى الوقت نفسه تغطى رأسها وجهها بالجص • وينبغى عليها أن تفعل هذا مدة ثلاثة أشهر قمرية • ويخدش الاطفال جباههم حزنا على فقد والديهم • والوالدان عند سكان وسط فيكتوريا هما اللذان يجرحان جسميهما جروحا بالغة عند فقد ابن لهما • فالأب يضرب رأسه ويجرحها بالفأس ، والأم تحرق صدرها وبطنها بعصاة مشتعلة • وهما يفعلان هذا يوميا ولمدة ساعات حتى تنتهى فترة الحداد • ولا تحرق النساء الأرامل فى هذا القبائل صدورهن وأذرعهن وأرجلهن وأفخاذهن بالعصى المحترقة فحسب ، بل

يدعكن الرماد فى جروحهن ويخدشن وجوههن حتى يختلط الدم بالرماد • وعند قبيلة كورناى التى تسكن فى جنوب شرق فيكتوريا ، يقطع المحزونون أنفسهم بالاحجار الحادة والفؤوس حتى يتدفق الدم من رءوسهم وأجسامهم • واذا توفى رجل فى قبيلة ماكجاراوانيت التى تقطن غرب فيكتوريا ، فان أقرباءه يصرخون عليه ويقطعون أنفسهم بالفؤوس وغير ذلك من الآلات الحادة لمدة أسبوع •

وعند قبائل جنوب موراى وأدنى نهر دارلنج يلهب المحزونون ظهورهم وأذرعهم ، وفى بعض الاحيان وجوههم بشعلات من اللهيب المحترق ، حتى يترتب عن ذلك كدمات مؤلمة • ثم ينبطحون فى عنف على القبر ، ويمزقون شعورهم عن طريق تدليك رءوسهم وأجسامهم بحفنات من التراب تدليكا مسرفا ، كما يدلكون قرحاتهم التى يضرب لونها الى الخضرة حتى يختلط الدم بالأوساخ فى شكل مقزز للغاية • وقد تعود المحزونون فى قبيلة كاميلارو ، وهى قبيلة كبيرة تسكن شرق « نيوسوث ويلز » ، وبخاصة النساء منهم أن يغطوا رءسهم بكتل من الجص ، ثم يشقوا رءوسهم بالفؤوس حتى يتدفق الدم فوق الجص ويسيل على أكتافهم حيث يترك حتى يجف • وقد تحدث كاتب عن طريقة الدفن عند سكان نهر « موراى » فقال : « يجتمع كثير من النساء حول نعش الفقيد ، وهن قريبات المتوفى ، ويصرخن ويعولن عويلا مؤلما ، ويجرحن أفخاذهن وظهورهن وصدورهن بالقواقع وحجر القداح ، حتى يتدفق الدم بغزارة من الجروح » •

وتدوم فترة الحزن عند قبيلتى « كابى » و « وكا » اللتين تسكنان جنوب شرق كوين لاند بالقرب من نهر « مارى » حوالى ستة أسابيع • « ففى كل ليلة ينبعث صوت صراخ من الجميع ويدوم بضع ساعات يصحبه قطع الاجسام بأحجار القداح أو بأية آلة قطع أخرى • ويكتفى الرجال بثلم مؤخر رءوسهم • أما النساء فيجرحن أنفسهن من قمة رءوسهن الى أخمص أقدامهن ، ويتركن الدماء تجف على

جلودهن » • أما فى حى « بوليا » فى وسط كوين لاند ؛ فان النساء يجرحن أفخاذهن بجروح داخلية وسطحية بأحجار حادة أو بقطع من الزجاج ، بحيث يحدثن جروحا فى شكل متواز • وفى الاحياء المجاورة « لكوين لاند » يجرح الرجال أفخاذهم فى المكان نفسه جرحا واحدا عميقا فى شكل صليب • ويجرح أفراد قبيلة « كاكادو » التى تسكن فى المنطقة الشمالية من استراليا رءوسهم فى وقت الحزن حتى يتدفق الدم على وجوههم وعلى أجسامهم • ويفعل هذا الرجال والنساء على السواء • ثم يجمع بعض الدم بعد ذلك فى قطعة من لحاء الشجر توضع بدورها ، فيما يبدو ، عند شجرة تقع فى المكان الذى توفى فيه الشخص •

واذا حدثت وفاة فى قبيلة « كاريرا » التى تقطن غرب استراليا ، فان أقارب المتوفى الرجال منهم والنساء يولولون ويقطعون فروة رءوسهم حتى يسيل منها الدم • كما يقص شعر المتوفى ويحتفظ به ، ويصنع منه خيوط يرتديها الأقارب • ومن المألوف عند قبيلة« نارينيرى» وهى قبيلة تسكن جنوب استراليا أن يحرق جزء من جسد الميت فوق نار هادئة ثم ينزع عنه الجلد ويلون بمادة حمراء • وبعد ذلك يعلق الجسد عاريا على منصة • « وعند ذاك يصرخ أقارب الميت وأصدقاؤه ويعولون ويحلقون رءوسهم فى أحكام ، ويدهنون أنفسهم بالزيت والفحم المسحوق • أما النساء فيغطين أجسامهن بالروث المقزز ويضربن أنفسهن ويقطعن أجسامهن ويظهرن عاطفة الحزن فى عنف • ويحرص كل الاقارب على الحضور وعلى ألا يتغيب لحظة ابداء علامات الحزن حتى لا يتهموا فى اشتراكهم فى جريمة قتل المتوفى » •

ويفرض على الرجل فى قبيلة « أرونتا » التى تسكن وسط استراليا أن يجرح نفسه عند الكتف حزنا على فقد حميه • فان لم يفعل هذا ، فربما قدمت زوجته لرجل آخر ، حتى يهدأ غضب شبح الاب الذى هيجه عدم ولاء زوج ابنته له •

ويحرق رجال « أرونتا » أكتافهم . ويظل هذا الجرح الملتهب علامة على ولائهم لأحمائهم المتوفين • أما قريبات المتوفى فى قبيلة«أرونتا» فيجرحن أنفسهن كذلك ويقطعن أجسامهن ابداء للحـــزن • وعلى الرغم من أنهن يفعلن هذا فى جنون ، ألا أنهن مع اضطرابهن البالغ ، يحرصن على أن يدمين جزءا حيا من أجسامهن ، وانما يعملن القطع فى فـــروة رءوسهن وأكتافهن وأرجلهن • وتحلق النساء الأرامل شعورهن فى قبيلة « وارامونجا » فى وسط استراليا ، ويقطعن فروة رءوسهن مـــن الوسط ، ويمررن فى الجرح عصيا محترقة • وكثيرا ما ينجم عن هذا عواقب جسيمة • وتكتفى قريبات المتوفى الأخريات فى قبيلة«وارا مونجا» بقطع فروة رءوسهن وذلك عن طريق ضربها تباعا بعصى اليام حتـــى يسيل الدم على وجوههن ، بينما يجرح الرجال أفخاذهم بالســـكين جروحا تختلف فى درجة عمقها•وهم يعملون على توسيع هذه الجروح قدر الامكان بأن يربطوا خيطا متينا حول الرجل على جانبى الجرح • ويظل أثر الجرح على هذا النحو باقيا الى الابد • وقد أبصر رجل يحمل آثار جراح بلغ عددها مالا يقل عن ثلاثة وعشرين جرحا ، صنعها فى جسمه فى فترات الحزن المختلفة • وفضلا عن هذا ؛ فان رجال « وارامونجا » يقطعون شعورهم فى فترات الحزن بحيث تصير شعورهم قصيرة للغاية ثم يحرقون هذا الشعر المقصوص ويطلون فروة رءوسهم بالجص . بينما يحلق الآخرون شواربهم • وهم فى كل عمل من هذه الأعمـــال يتبعون قواعد محددة ؛ فهم لا يجرحون الأفخاذ ، بل لايقصون الشعر أو يحلقون شواربهم اعتباطا ؛ أو لمجرد الشعور بالحزن ، وانما ينبغى على الاشخاص الذين يؤدون هذه الافعال أن تكون قرابتهم للميت محددة ، وليست قرابة من أى نـــوع • وتخضـــع صلة القـــربى فى تصنيفاتها ومجموعاتها لمـــا تعارف عليه ســـكان استراليا الاصـــليون وحدهم • « فاذا توفى رجل » فى هذه القبيلة ؛ « وكان ينتمى اليـــك بصلة قرابة خاصة ، فلا بد أن تقوم بايذاء نفسك الايذاء المناسب لهذه القرابة ؛ كأن تجرح فخذيك أو تقص شعرك ، وسواء كنت صديقا

شخصيا للميت آم لا أو كان المتوفى صديقك الحميم أم من آلد أعدائك فلا بد أن تقوم بايذاء نفسك ايذاء ما » .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الدم المتدفق من قطع جسد المحزونين الاستراليين يصب على جسد الميت مباشرة أو على الاقل يتساقط على قبره . فقد تعود الرجال فى بعض القبائل التى تسكن عند نهر دارلنج ، أن يقفوا عند القبر المفتوح ، وأن يقوم كل منهم بجرح رأس الآخر بقطعة خشب معقوفة ، ثم يحنون رءوسهم فوق الضريح ، بحيث يتساقط الدم على الجسد المسجى . فاذا كان الميت ذا شأن ، فان هذه العملية تتكرر بعد أن يلقى بعض التراب على الجسد المسجى . ويحدث مثل هذا عند قبيلة « ميليا » ــ « أوبا » التى كانت تحتل البلد القريب من بحيرة توروتا التى تقع بدورها فى الشمال الغربى من « نيو ساوث ويلز » . فاذا كان المتوفى محاربا فان المحزونين يجرحون رءوس بعضهم بعضا ، ويجعلون الدماء تسيل على الجسد المسجى فى القبر . « ولقد كنت أشهد حفلا جنائزيا عند قبيلة باهكونجى التى تسكن فى « بوركى » التى تقع على نهر دارلنج . عندما قفز الرجل الارمل (وتصادف أنه كان زعيما من الزعماء) الى القبر ، وأمسك شعره بأصابعه ، واذا برجل أسود آخر جاء يقفز وراءه ، وضربه ضربة قوية بقطعة من خشب معقوفة على مفرق رأسه ، حتى سال الدم من الزعيم الذى قام بدوره يعمل نفس الفعل مع رفاقه . وهذا الاجراء يجرى وفق تصورى ، على سرير الوداع ، قبل أن يدفن الميت » . وقد تعودت قريبات الميت فى قبيلة أرونتا التى تسكن وسط استراليا ، أن ترمى بأنفسهن على قبر الميت ، ويقمن بجرح أجسادهن ورءوسهن لبعضهن البعض ، بضربها بهراوة الحرب أو بعصى الحفر حتى يسيل الدم فوق القبر مارا بالجص الذى يطلون به أجسامهن . كما وصف كاتب كيف أن الاهالى الذين يسكنون عند نهر فاس فى غرب استراليا يضعون جسد الميت بجانب القبر الذى يحفرونه ثم « يجرحون أفخادهم ويقولون عندما يسيل منها الدم .

لقد جئنا اليك بالدم • ثم يدكون الارض بقدم من أقدامهم . ويرشون الدم من حولهم ويدعكون الجروح بحزمة من فروع الاشجار، ويرمونها وهى مدمية على الرجل الميت » ••

ومما هو جدير بالذكر كذلك ، أن السكان الأصليين فى استراليا يقدمون فى بعض الاحيان شعرهم المقطوع ، ودمهم المسكوب لموتاهم • فيخبرنا سير جورج جراى « أن أهالى بقاع كثيرة فى استراليا يقطعون أجزاء من لحاهم عند الجنازة ويمررونها فوق اللهب ويرمونها فوق جسد الميت • وفى بعض الأحيان يقطعون لحية الميت ويحرقونها ويدلكون أجسامهم برماد الشعر المحترق » • واذا قارنا عادات الاستراليين المحدثين بعادات العبريين القدماء فى الحزن ؛ فاننا نجد سير جورج جراى يضيف قائلا : « ان النساء جميعا يجرحن أنفسهن ويخدشن وجوههن حزنا على الميت ، وهن كذلك يعبرون عن هذا الحزن بأن يصنعن صلعة فى رءوسهن فيما بين أعينهن وهو المكان الذى تعودن أن يمزقن جلده بأظفارهن » ••

ويبدو أن عادات الحزن عند سكان تاسمانيا الاصليين البدائيين ، تتفق مع العادات السالفة الذكر ، « فالنساء لا يبكين فقط بعد أن يغطين رءوسهن المحلوقة بالجص ؛ ووجوههن بمزيج من الفحم وشحم حيوان الأمو أو شحم أى حيوان آخر سمين ؛ ولكنهن يجرحن أجسامهن بقواقع حادة وبالاحجار ؛ بل انهن يحرقن أفخاذهن بعصى محترقة • كما تطرح الازهار فوق القبر ويغطى الجسد العزيز بالاشجار • أما الشعر الذى يقصصنه فى أوقات الحزن ؛ فيطرح على ربوة » ••

ولقد استطعنا حتى الآن أن نقتفى أثر عادات قطع الجسم وقص الشعر ؛ وهما من علامات الحزن على الميت ، بين قطاع كبير من الشعوب ، ابتداء من أكثر الشعوب حضارة فى العصر القديم حتى أكثرهم همجية فى العصر الحاضر ، وبقى لنا بعد ذلك أن نتساءل : ما مغزى هذه الشعائر ؟ ان النيكوباريزيين يقصون شعر رءوسهم

وحواجبهم فى أوقات الحزن للسبب الذى يعزونه ، وهو الظهور بمظهر متنكر لشبح الميت الذى يرغبون فى الروغان منه ، لأنه ، وفقا لتصورهم، لا يمكنه التعرف عليهم بعد أن يقصوا شعورهم • فهل من الممكن أن تكون الشـــعوب جميعا قد اصطنعت كلتا العادتين بقصد خداع الشبح أو طرده اذا ما أصبح أقرباء الميت الاحياء غير معروفين للشبح أو منفرين له ؟ ان كلتا العادتين تعتمد بناء على هذا الفرض ، على الخوف من الشبح • فالمحزونون يأملون عن طـريق جرح أجســامهم وقص شعورهم ألا يتعرف عليهم الشبح أو ينفـر من رءوســهم المحلوقة وأجسامهم الدامية فيبتعد عنهم ، أى أنهم يهدفون الى التخلص من مضايقاته فى كلتا الحالتين •

ولكن كيف يمكن أن يتفق هذا السبب مع الحقائق التى قدمناها ؟ من المؤكد أن الخوف من شبح الميت فى استراليا يرجع الى أمر مـا غير الذى ذكر بهذا الصدد • فلقد رأينا أن الرجل فى قبيلة أرونتا اذا لم يجرح نفسه باتقان حزنا على وفاة حميه ، فان شبح حميه وفقا لاعتقادهم يغضب وينتزع ابنته من أحضان هذا الزوج الذى عصاه . لأنه لم ينفذ الوسيلة الوحيدة لتهدئة غضبه وهى تجريح جسده على نحو متقن • كما أننا رأينا أن الأرمـلة فى قبيلتى « أونما تجـيرا » و « كايبتش » اللتين تسكنان وسط استراليا تغطى جسدها بالرمـاد وتجدد علامة الحزن هذه فى أثناء فترة الحداد • فاذا لم تفعل هـذا « فان شبح الميت « أنتيرينجا » الذى يقتفى أثرها على الدوام ، يقتلها وينهش لحمها » • فالخوف من الشبح واضح فى هذه الحالات ولكنه لا يبدو منها أى هدف لخداع الشبح أو اثارة اشمئزازه عن طريق ظهور الشخص الحزين له فى مظهر تنكرى أو جعل شكله منفرا له • بل ان شعائر الاستراليين فى الحزن تهدف فيما يبدو على العكس ، الى ابراز المحزونين للشبح على هذا النحو لعله يكون مقتنعا بما يبدونه مـن امارات الحزن على الفقيد • فقبيلة أرونتا وغيرها من قبائل وســط استراليا ، يخشون من الحاق الاساءة بالشبح ومن ثم يكونون معرضين

لايذائه . اذا هم لم يبدوا امارات كافية على الحزن على فقيدهم • وقد قيل لنا بصدد ما يقومون به من طلاء جسم المحزون بالجص انـــه « ليست هناك أدنى فكرة لاخفاء شخصية المحزون عن شبح الميت . بل ان الفكرة على العكس هى أن يجعلوا المحزون . رجلا كان أو امرأة. مميزا للشبح حتى تتهيأ له الفرصة لأن يرى أن قريب الميت قد حزن كل الحزن على فقد قريبه » • أى ان عادات قبائل وسط استراليـــا تهدف باختصار فيما يبدو الى اشباع رغبة الشبح أو التودد اليه . أكثر مما تهدف الى الروغان منه أو اثـــارة اشمئزازه • وهذا الهـــدف الحقيقى الذى تسعى اليه عادات الاستراليين فى العموم يؤيده مـــا يتبعونه من السماح لدم الشخص الحزين أن يسقط فوق جسد الميت أو فى قبره . ووضع شعره المقصوص على الجسد المسجى • فهـــذه الأفعال لا يمكن أن تفسر الا من خلال كونها جزية تدفع لروح الميت أو عطية تمنح له بقصد اشباع رغباته أو تحويل غضـــبه عنهم • وبالمثل رأينا أن المحزونين فى قبيلة « أورانج ساكاى » التى تسكن سومطرة . يتركون دمهم يسقط من جروحهم التى صنعوها بأنفسهم . على قطعة من القماش التى تترك بجانب جسد الميت فى نعشه • وبالمثل فان عادة وضع الشعر المقصوص على جسد الميت أو فى قبره كانت تنتشر قديما وحديثا ، عند العرب والاغريق والمينجراليين وهنود أمريكا الشماليـــة والتاهيتيين والتاسمانيين . بقدر ما كانت تنتشر بين سكان استراليـــا الأصليين • ومن ثم فانه يحق لنا أن ننتهى الى أن الهدف وراء اشباع رغبة الشبح أو الاستفادة منه كانت على الاقل دافعا من الدوافع التى دفعت الشعوب الى اصطناع تلك العادة التى نحن بصددها وهى عادة ايذاء أجسام الأحياء • ولكن قولنا هذا لا يعنى أننا نؤكد أن استرضاء الشبح كان هو الهدف الوحيد الذى من أجله كان الناس يقومـــون بمثل هذه الأعمال الفظيعة . فربما كانت الشـــعوب المختـــلفة تؤذى أجسامها أو تشوهها بتأثير دوافع عديدة . وان من بين هذه الدوافـــع المختلكة الرغبة فى ابعاد شبح الميت الخطير وخداعه •

على أنه ما زال علينا أن نتساءل : كيف تصورت هذه الشعوب أن تقديم الدم والشعر لشبح الميت يمكن أن يجلب السرور له أو يعود عليه بالفائدة ؟ فهل تعتقد هذه الشعوب أن الشبح يجد فى هذين الشيئين مجرد تعبير عن حزن أصدقائه الصادق لموت قرينه ؟ • ان هذا التفسير هو الذى يعزوه التاهيتيون لهذه العادة بكل تأكيد • ذلك لأنهم يقدمون لشبح الميت دموعهم بالاضافة الى دمائهم وشعورهم • كما انهم يعتقدون أن شبح الميت « يرقب أفعال الأحياء وهو يمتن لابداء مثل هذه المشاعر العاطفية الحزينة » • على أننا اذا كنا قد سمحنا لأنفسنا بأن نتهم الانسان البدائى بالاثرة ، فربما نكون بذلك قد أسأنا الى الشبح البدائى ، اذا افترضنا أنه كان يطلب ضريبة الدم والدموع والشعر ، لا لسبب الا امتاع نفسه برؤية أقربائه من الأحياء فى عذابهم وحرمانهم • ويبدو أنه كان يعتقد فى الأصل أن الشبح يجنى فائدة ملموسة ونفعا ماديا من اظهار العاطفة والحب على هذا النحو • وقد أشار روبرتسون سميث أن الهدف من تقديم دماء المحزونين لشبح الراحل هو خلق عهد دموى بين الحى والميت ، ومن ثم يتأكد الأحياء من وجود علاقة ودية بينهم وبين الميت ، أو انهم يمهدون لها بهذه الوسيلة • وقد أشار روبرتسون سميث ، بقصد تدعيم هذا الرأى ، الى عادة بعض الاستراليين الذى يسكنون عند دارلنج • فهؤلاء كانوا يقطعون قطعة من جسد الميت ويجففونها فى الشمس ثم يقطعون هذه القطعة الى أجزاء صغيرة يوزعونها على أقرباء الميت وأصدقائه • فيقوم بعضهم بابتلاع نصيبه ليكتسب الشجاعة والقوة ، فى حين يرميها البعض الآخر فى النهر حتى يجلب النهر لهم الفيضان والسمك ان كانوا فى حاجة اليهما • فهنا يبدو بدون شك أن تقديم الدم للميت وأخذ جزء من لحمه ، يخلق علاقة من نوع ما بين الأحياء والأموات سواء سمينا هذه العلاقة عهدا أو أى شىء آخر • وقد كانت هذه العادة تتبع بين قبيلة « كاريبرا » ، فقد كان أفراد هذه القبيلة يقصون شعر الميت ويصنعون منه خيوطا يرتديها أقارب الميت ، بالاضافة الى عادة اصابة أجسامهم بجروح • فهنا يبدو مرة أخرى أن هناك فائدة متبادلة

بين الأحياء والأموات ، فالأحياء يقدمون دمائهم لقريبهم الراحل ، كما يأخذون منه بعض شعره فى مقابل هـذا .

ومع ذلك فان هـذه الأفعال التى تشير الى علاقات طيبة متبادلة بين الأحيـاء والأموات قليلة للغاية ، بحيث لا نعدها كافية لأن تنتهى الى هـذه النتيجة وهى تعـذيب الأقارب الذين رزئوا فى عزيز لديهم ، عن طريق اصابة أجسامهم بجروح وغير ذلك من أنواع الايذاء الذى يقصـد به دائما أو فى العموم عقـد عهد يضـمن المساعدة والحماية المتبادلة بينهم وبين شبح الشخص المتوفى . ان غالبية الممارسات التى أشرنا اليها فى هـذا الفصل يمكن أن تفسر تفسيرا منطقيا بوصـفها منحا يقدمها الأحياء للميت . ولكننا لا نجـد بعض هذه العادات بل ولا أية عادة منهـا ، اذا استثنينا العادات الاسترالية ، يشـير الى ما يقـدمه الشبح لأقربائه الأحيـاء من ود فى مقابل ما يقدمونه له . وبناء على ذلك فان الفرض الذى يمكن أن يفسر قطع الأحياء لأجسامهم من أجل الميت بوصفه محاولة لاقامة عهد دموى بينه وبين الأحيـاء ، ينبغى أن يستبعد فيما يبدو على أساس أن الشـواهد لا تؤيد هـذا الفرض كل التأييد .

على أن هناك تفسيرا أكثر وضوحا وأكثر بسـاطة لعادة اصـابة الأحياء أنفسهم بجروح تشير اليه عادات بعض القبائل الهمجية التى تمارس هذه العادة . فلقد رأينا أن عادة اصـابة الأحياء لرءوسـهم وترك الدم يتساقط منها على جسد الميت ، كانت تنتشر بين القبائـل الاسترالية التى تسـكن عند نهر دارلنج . أما العادة المتبعة اليـوم بين هذه القبائل ، أو بالأحرى كانت متبعة بينهم من زمن ، فهى عادة الاحتفـال بسن البلوغ . « ففى اليومين الأولين من هذا الاحتفـال لا يشرب الولد سوى الدم الذى ينزف من شرايين أصدقائه الذيـن يتطوعون عن رضا بمده بالغذاء . فهؤلاء الأصـدقاء يربطون أذرعهم من أعلى ، ثم يقطعون شرايين أسفل الرباط ويجمعون الدم فى وعاء

خشبى أو فى قطعة من اللحـــاء فى شـــكل طبق • ثم يركع الولد على ركبتيه فى سريره المصنوع من فروع شجيرات الفوكسيا ، يضم يديه خلفه ويلعق الدم بلسانه من الوعاء الموضوع أمامه كما يفعل الكلب • وبعد هذا يسمح له أن يأكل لحم البط الى جانب شربه الدم » • ومرة أخرى نجد « أن المريض بمرض شديد أو الشخص الضعيف » بين هذه القبائل نفسها « يتغذى بالدم الذى يقدمه له أصدقاؤه من الرجال بالطريقة التى سبق أن شرحناها • ويرتشف الصبى هذا الدم بطريقة ساذجة ، فهو يرفع هذا الدم المتجمد الى فمه بين أصابعه والابهـــام • ولقد رأيتهم يطهون الدم فى وعاء خشـــبى يوضـــع وســـط الرمـــاد المتوهج » • ومرة أخرى يخبرنا هذا الكاتب نفسه وهو يتحدث عـــن هذه القبائل نفسها فيقول : « وفى بعض الأحيان يحدث أن ينتقل الأفراد بخيامهم ويقومون برحلة طويلة عبر الأراضى الجرداء ومعهم الرجـــل المريض الذى يحمله رجال أشداء يتطوعون بدمهـــم للمريض حتـــى يصابوا بالضعف والاعياء ، ذلك لأنهم يعتقدون أن الدم هو أفضـــل غذاء للمريض » • واذا كانت هذه القبائل الهمجية تقدم الدم غـــذاء للمرضى والضعفاء من أصدقائهم الأحياء فما المـــانع اذن أنهم كانـــوا يفعلون هذا مع أقربائهم من الأموات ؟ لقد كان ســـكان اســـتراليا الأصليون شأنهم شـــأن كل القبائل الهمجيـــة • يعتقـــدون أن روح الانسان تعيش بعد فناء الجســـد • وقد يكون من الطبيعى بنـــاء على ذلك أن الروح فى حالة تحررها من الجســـد ينبغى أن يمـــدها أقرباؤها بالغذاء الأساسى الذى طالمـــا كانوا يقدمونه له فى حيـــاته ليتقوى به • ولقد قدم أوليسيوس ، بناء على هذا الأساس نفســـه ، عندما وصل الى أرض الأموات فى بلد « سيميريان » النائية شـــاة ضحية وجعل دمها يتدفق فى خندق تجمعت حوله الأشباح الضعيفة فى شغف ، وأخذت تشرب الدماء ، وبذلك استعادت قوتها وأصبحت قادرة على أن تتحدث مع البطل •

ولكن اذا كان الدم الذى يقدمه المحزونون كان يراد به انعـــاش

الشبح ؛ فما سبب تقديمهم الشـــعر له ؟ وقد نتصور أن الشبح يشرب الدم ولكن من الصعب أن نتصور أنه كان فى حالة من الجوع الشديد بحيث يلتهم الشـــعر • ولكن ما زال علينا أن نتذكر أن الشعر ـ وفقا لمعتقدات بعض الناس ـ هو الشىء الأساسى الذى تســـكن فيه قوة الشخص • وربما تصور هؤلاء أن قص الشعر بناء على ذلك وتقديمه للميت ـ يمده بمنبع من القوة لا يقل فى وفرته وأثره الفعال عن الدم الذى يقدم له • واذا كان هذا الفرض صحيحا فان التطابق بين عـــادة اصابة الجسم بجروح وعادة قطع الشعر تبدو واضحة • على الرغم من أن هذا هو التفســـير الحقيقى لكلتا العادتين ؛ فان الشواهد التى بين أيدينا ليست كافية لكى تجعلنا نتحمس له فى ثقة •

ومهما يكن الأمر فان بحثنا السابق يميل لأن يؤكد وجهة النظـــر من حيث أن انتشار عادات قطع أجسام الأحياء ، وقص شعرهم بعد فقد عزيز لديهم ـ نشأت فى الأصل بقصد أرضاء روح الراحل وخدمتها على نحو ما • وبناء على ذلك ، فحيثما انتشرت هذه العادات ـ فانها تؤخذ كشـــاهد على أن الناس الذين اتبعوها كانوا يعتقدون فى بقاء الروح بعد موت صاحبها ، وكانوا يرغبون فى اقامة علاقة ودية معه • وبتعبير آخر ؛ فان انتشار هذه العـــادات تعنى اســـترضاء الميت أو تقديسه • وحيث أنه يبدو أن العبريين قد مارسوا عادة اصابة الأجسام بجراح وعادة قص الشعر احتراما لأقربائهم المتوفين ، فاننا نضمهم بشىء من الثقة الى زمرة القبائل المتعددة والشعوب التى كانت تنزع الى تقديس الأجداد فى زمن أو آخر • وقد كانت هذه العقيدة تتمتع من بين كل أشكال الديانات البدائية بانتشار واســـع ـ وبتأثير كبير على الشعوب • ومن المحتمل أن العلاقة الوثيقة بين عادات الحـــزن وتقديس الأموات كانت معـــروفة لدى الاسرائيليين حتى قـــرب عصر الملوك • وربما أمدت المصلحين الدينيين فى هذا العصر بالدافع الأساسى وراء تحريم عادات الحزن الغريبة هذه ؛ تلك التى عدوها بحق أثـــرا من آثار الوثنية •